٢

هذا الصنف من المؤلفين

ظاهرة كل العصور :

إن الظاهرة شيء ، والالتفات إليها والوعى بها شيء آخر ، واخضاعها للبحث العلمى شيء ثالث مختلف ، فالميل الجنسى ، والتعاطف بين الذكر والانثى غريزة ، بمعنى أنه استعداد خلقى فى تكوين الانسان وليس شيئًا مكتسبًا ، والشيء المكتسب انما هو طريقة التعبير عن هذا التعاطف ، وإن بقى الميل الجنسى يعبر عن نفسه بطريقة واحدة تقريبا . وقد توجه وعى الإنسان – فى أطوار حضارته – نحو هذه الغريزة يحاول تهذيبها وترقيتها باحاطتها بأنواع من السلوك وألوان من آداب القول الذى يتقرب به المحب إلى المحبوب ، غير أن الشاعر الذى يملك مقدرة التعبير قد انطلق لسانه وقد شفه الجوى ، فتأمل الناس معانى قوله واهتزت القلوب استجابة ، وبهذا يمكن اعتبار الشاعر أول من انتقل بالغريزة من مستوى الظاهرة السلوكية إلى مستوى الظاهرة الفنية ، وقد استحق بذلك اسم « أول مؤلف » عن الحب ، إذا أريد بالتأليف مجرد التعبير التلقائى . ولكن طورا آخر ما لبث أن تقدم ، هو الذى سيحظى بأكثر عنايتنا ، وهو طور لا يعتمد على تلقائية الاحساس الخاص أو التجربة الذاتية ، أو هو لا يعتمد عليهما فى المحل الأول ، بل يحاول أن يستقصى الظاهرة ، وأن يحيط بأطرافها ، وأن يضعها فى اطار معين يجعلها أقرب إلى الادراك ، سواء كان هذا الاطار وصفيا يكتفى برصد الظاهرة فى نشأتها ونموها وتطورها التاريخى ، أو تحليليا ، يعنى بتقصى الدوافع واكتشاف الغايات البعيدة ، وتعليل أسباب التشابه أو التباين فى تجارب المحبين ، بل قد يصطنع مؤلف ما منهجًا ثالثًا ، لا يقف فيه عند الحب كعلاقة إنسانية بين شخصين محددين ، أو أشخاص معروفين مهما تعددوا ، وانما يحاول تكييف الظاهرة فى رؤية كلية متعمقة لحقائق الحياة الانسانية الراسخة التى لا تتبدل بحركة المجتمع أو نظامه أو ما يسمى بالبيئة الاجتماعية ، غوصا وراء حقائق الحياة الكونية المستمرة التى يمثل النشاط البشرى جزءا من علاقاتها ونظامها . وهنا يسيطر المنهج الفلسفى ، بعد المنهجين : الوصفى والتحليلى . وسنجد « الحب » قد أخذ مكانه فى ديوان الأدب العربى فى حدود هذا الاطار العام الذى أشرنا إليه ، تقريبا ، فلهج به الشعراء زمانًا طويلاً ، ثم انتشر فيه القول من خلال رواة الأخبار وقصص العشاق وأصحاب النوادر ، ثم ما لبث أن صار « رسالة » من بين رسالات الفلاسفة وأشباه الفلاسفة من الشراح والمنجمين ومن يتعلق بهيئة هؤلاء وهؤلاء .

ويكاد ينعقد اجماع الدارسين على أن دراسات الحب فى التراث العربى تنقسم إلى نوعين : نوع اعتبر مؤلفوها المحبة والعشق ظاهرة إنسانية لا تعدو حدود الأحوال البشرية المشهودة من أهلها ، من الحيرة عند مشاهدة جمال مخلوق ، ومن تعلق القلب بالمعشوق والألم عند هجره أو فراقه الخ ، والنوع الثانى هو ما ألفه أهل التصوف الذين يعتبرون محبة الجمال المخلوق مرحلة أولية فى سلوك السالك ، يجب أن يرتقى منها إلى محبة خالق الجمال ، ويعتبرون هذه المحبة هى المحبة الحقيقية أو العشق الحقيقى ، أما ما يكون بين البشر فهو عشق مجازى[1] . ولقد حددنا مجال دراستنا هنا بالنوع الأول ، ولكن دون أن نستسلم لهذا التقسيم التقليدى ، إذ أننا نجد بين دراسات الصوفية أنفسهم – وإن لم يكن دائما أو كثيرا – من يهتم بالحب فى مستواه الانسانى ، بين الرجل والمرأة ، دون أن يجعل منه مجرد مرحلة ينبغى تجاوزها إلى الجمال المجرد أو المطلق ، كما أشار هـ . ريتر . ومبعث هذا الاهتمام بالحب فى مستواه المألوف ، وإن يكن متسما بالعفة الخلقية دائما ، أمر جدير بالعناية حقا ، ونجد بغيتنا فى كتاب أشار إليه ريتر نفسه فى مقدمته ، واعتبره أقدم كتب المتصوفين فى العشق ، وهو كتاب « عطف الألف المألوف على اللام المعطوف » لأبى الحسن على بن محمد الديلمى (ت ٣٧١ هـ)[2] ، وفيه يدلى بحكم عميق الدلالة ، حين يقرر أن النفوس إذا لم تتهيأ لقبول المحبة الطبيعية فإنها لا تحمل المحبة الآلهية .[3] والديلمى – على أى حال – مثل أكثر المتصوفة – لا ينكر أن يكون الحب البشرى خطوة نحو الحب الآلهى ، ولكن عبارته تعطى مفهومًا أكثر اتساعًا وعمقًا ، لأنه يرى الحب استعدادًا متأصلاً فى النفس ، فلن يكون المحب قادرا على حب الله ، عن غير طريق الحب الطبيعى ، حب البشر ، وعلى هذا فليس أصحاب المحبة الآلهية عنده قسمين ، قسم بلغها بالفكر والتأمل وقسم بلغها من خلال تجربة العشق البشرى ثم ارتقى عنها ، انهم جميعا ينبغى أن يكونوا قادرين على محبة الآخرين ، ثم تأتى مرحلة الاقتدار على التجريد ، وتلك هى المنزلة الخاصة .

---

(١) انظر مقدمة ريتر لتحقيق كتاب : مشارق أنوار القلوب ، وقد رفض ابن القيم بشدة اعتبار مظاهر الجمال البشرى (وليس الجمال على اطلاقه) مقدمة للوصول إلى الجمال المطلق ، وذكر من قصص وأخبار أدعياء التصوف ما يزرى بالخلق . انظر مثلا : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ١٢٢ ، ١٢٣ . وقد اهتم محمد غنيمى هلال بشخصية مجنون ليلى عند شعراء الفرس ، وكيف صار فى قصائدهم القصصية محبًا صوفيا ، حتى يقول عبد الرحمن الجامى « حذار أن تعتقد أن المجنون كان مفتونا بحسن المجاز ، فعلى الرغم من أنه كان صبا أول الأمر لليل جرعة من كأس ليلى ، فقد رمى أخيرا بالكأس وحطمها حين صار ثملا ، ومن المجاز تفتحت فى بستان سره أسرار الحقيقة » الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) حققه وقدم له بالفرنسية J.C.Vadet ، وفيها يشير إلى أن الكتاب صادر عن مذهب واضح أساسه حرية الاختيار ، مع تأثير أفلاطونى . على أنه يؤكد ما يلاحظ على النسخة المنشورة (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية –القاهرة – ١٩٦٢) من نقص واضطراب .

(٣) عطف الألف المألوف على اللام المعطوف ص ١٥ .

ومن الصحيح ما لاحظته المستشرقة الأمريكية Lois Anita Giffen فى كتابها Theory of Profane love among the Arabs : the Development of the Genre .

من أن نظرية الحب الآلهى قد نالت على ممر السنين ، ولا تزال تنال اهتماما أكبر مما نالته نظرية الحب الإنسانى ، وهى ترجع هذا التفوق الكمى – فى عدد الكتب – والنوعى – فى جديتها وعمق مادتها – إلى أن الدافع الدينى – بالنسبة للثقافة العربية – كانت له الغلبة على سائر الدوافع فى العالم الاسلامى كله ، وقد ظهر أثر هذا الدافع أيضا فى الكتابات التى تعالج الحب الإنسانى ، حيث لا تخلو من اعتبارات أخلاقية ودينية ، بل وصوفية(١).

ولكننا مع هذا التسليم بأن الحب الانسانى لم ينل ما يستحق من اهتمام الباحثين إذا ما قيس إلى الحب الآلهى ، فإننا نجد سيلاً دافقًا من المؤلفات ، أحصى منه ريتر ثلاثة عشر مؤلفا تمتد ما بين القرن الثالث الهجرى والقرن الحادى عشر ، وأحصت لويزانيتا جيفن تسعة عشر مؤلفا عن المدة نفسها تقريبا(٢) وسنضيف بدورنا عددا آخر ليتأكد فى النهاية أن التأليف عن الحب كالحديث عن الحب، ، كالحب نفسه ، لا يتوقف إلا ليبدأ من جديد ، وأنه كظاهرة امتدت بطول العصور ، على أن البداية ستبقى غامضة بعض الشىء ، شأن البدايات فى أى شىء . على أن هناك شبه اتفاق على أن الجاحظ (٢٥٥ هـ) قد فتح باب الحديث فى الحب بمقالتيه عن النساء وعن القيان ، ونضيف إليهما مقالته الثالثة : مفاخرة الجوارى والغلمان ، فموضوع هذه المفاخرة ليس الأفضلية فى الخدمة المنزلية ، وإنما الصحبة والمسامرة ، والاشارات الجنسية لا تخفى أيضا . ثم ما كتبه أحمد بن الطيب السرخسى (٢٨٦ هـ) وينقل الزركلى عن القفطى وغيره أنه قرأ على الكندى الفيلسوف ، وأن من مؤلفاته : المدخل إلى صناعة النجوم – والجلساء والمجالسة – واللهو والملاهى ، وهذا الأخير – كما يصفه – فى الغناء والمغنين والمنادمة والملح ، وكتاب القيان .(٣) ثم يأتى ابن داود صاحب الزهرة (٢٩٦ هـ) الذى نعتبره مؤسس اتجاه جديد فى دراسة الحب ، ثم محمد بن أحمد بن اسحاق الوشاء ، صاحب « الموشى » – أو الظرف والظرفاء ، على أن له كتابا آخر لم نطلع عليه قد يدل عنوانه على صلته بموضوعنا وهو : أخبار المتظرفات ،(٤) ثم محمد بن جعفر الخرائطى (٣٢٧ هـ) صاحب كتاب « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق(٥) وهو مخطوط ، ثم محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) مؤلف

---

(١) Iotruduction P xi-xiii

(٢) لنا نقد أساسى على قائمة المؤلفة ، إذ أهملت الكتب الموسوعية وبعض مؤلفات أخرى اهتمت بأخبار النساء وأشعارهن . وأمورا أخرى سيأتى ذكرها ، ولا يعنى هذا أننا لم نفد من القائمة ؛ ومن آرائها أيضا .

(٣) اهتمت السيدة جيفن بأول هذه الكتب فقط ، وعن السرخسى راجع : الأعلام ١٠٥/١. .

(٤) معجم الأدباء ١٣٢/١٧ .

(٥) معجم الأدباء ٩٨/١٨ ويضيف الزركلى إلى نسبته : « السامرى » . الأعلام ٧٠/٦ .

obeikandl.com

كتاب « الرياض » فى أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين ،[1] وكتاب « أشعار النساء » ثم الحصرى القيروانى (٤٥٣ هـ) صاحب « المصون فى سر الهوى المكنون » ، وهو مخطوط ، ومؤلف زهر الآداب وثمر الألباب ، ثم ابن حزم (٤٥٦ هـ) صاحب « طوق الحمامة » ، وهو أشهر ما كتب فى هذا الباب ، ثم جعفر السراج (٥٠٠ هـ) مؤلف « مصارع العشاق » ، ثم ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) صاحب « ذم الهوى » ثم أحمد بن سليمان الكسائى (٦٣٥ هـ) مؤلف : « روضة العاشق ونزهة الوامق » ، وهو مخطوط ، ثم شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد (٧٢٥ هـ) مؤلف « منازل الأحباب ومنازه الألباب » ، وهو مخطوط أيضا ، ويضيف إليه الزركلى « مقامة العشاق »[2] ، ثم ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) صاحب : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، ثم مغلطاى بن قليج (٧٦٢ هـ) مؤلف : « الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين » وهو مخطوط ، ثم ابن أبى حجلة (٧٧٦ هـ) مؤلف ديوان الصبابة ، ثم إبراهيم بن عمر الرباط البقاعى (٨٨٥ هـ) وقد اختصر مصارع العشاق فى كتاب مخطوط سماه « أسواق الأشواق » ، ثم داود الأنطاكى ، الطبيب الضرير (١٠٠٨ هـ) صاحب « تزيين الأسواق فى أخبار العشاق » ، ثم مرعى بن يوسف (١٠٣٣ هـ) مؤلف : « منية المحبين وبغية العاشقين »[3] ، وأخيرا : السلاطى – ولم نعثر على ترجمته –وقد ألف « صبابات المعانى وصبّابات المعانى » .

هذه تقريبا المصادر الأساسية لمادة الدراسة فى موضوع الحب ،نراها منتشرة على مساحة زمنية تبلغ ثمانية قرون دون توقف ؛ على أن هناك كتبا أخرى قد تكون أقل أهمية ، ولكنها تعطى ملامح إضافية لابد من الوعى بها ليكتمل تصور الظاهرة فى كافة أبعادها ، فكتاب « المحاسن والأضداد » المنسوب للجاحظ يكتسب أهمية لا تقل عن أهمية رسائله المشار إليها ، وكذلك بعض آرائه فى كتابه الضخم « الحيوان » ، مع افتراض تأثره بكتاب « طباع الحيوان »[4] لأرسطو ، وهناك كتاب آخر للمرزبانى أشرنا إليه من قبل ، بالاضافة إلى « أخبار النساء » المنسوب إلى ابن القيم ، ونراه أقرب إلى عقلية وأسلوب ابن الجوزى . ونضيف إلى هذه الكتب الاخبارية نوعين آخرين من الكتب التى اهتمت بالحب ، الأول : كتب القصص والنوادر التى تقترب فى مادتها من « مصارع العشاق » وإن ظهر طابع الصناعة أكثر وضوحا ، مثل كتاب « الفرج بعد الشدة » للقاضى التنوخى (٣٨٤ هـ) ، ففى الجزء الرابع من هذا الكتاب عدد وافر من

---

(١) معجم الأدباء ٢٦٨/١٨ وله مصنفات أخرى كثيرة سنشير إلى بعضها .

(٢) الأعلام ١٧٢/٧

(٣) لم يذكر الزركلى هذا الكتاب بين مؤلفاته : الأعلام ٢٠٣/٧ .

(٤) راجع فى تفاصيل ذلك : طباع الحيوان لأرسطاطاليس ترجمة يوحنا بن البطريق ، تحقيق عبد الرحمن بدوى .

قصص العشاق ، لا نجازف إذ نقول انه يخضع لمجموعة من القيم الفنية والأخلاقية ، تؤكد معنى مهما ، وهو أن مؤلفى هذا النوع من الكتب كانوا يختارون ما يتجاوب ورؤيتهم الخاصة للحب ،وأنهم – على الأرجح –كانوا يتدخلون فى الصياغة وفى تطوير الأحداث ، وسنجد مصداق ذلك فى هذه الطائفة من القصص التى سبق بها الجاحظ ، وتردد صداها عند جعفر السراج ومن جاءوا بعده ، فأضيف إلى القصة أو حذف منها ، وهذا أمر له أكثر من دلالة[1] .

أما النوع الثانى فهو تلك الفصول التى جاءت فى سياق الكتب الموسوعية العربية ، وصحيح أن بعض ما فيها من مادة يعتبر ترديدا لما جاء فى كتب سابقة ، ولكن الاهتمام برصدها وتحديد اتجاهاتها سيعنى الكثير فى التعرف على فترات الازدهار فى التأليف عن الحب ، ووجهة الكتاب فى طرح الظاهرة ومعالجتها ، والترديد فى ذاته ليس مبررا للاهمال أو التجاهل ، وفى الكتب التى بين أيدينا ما هو مجرد ترديد أو اختصار لكتب سابقة ، فضلا عن أن بعض هذه الفصول كتب فى فترة مبكرة ، وهذا يعنى أنه كان مصدرًا أصيلاً لما انتشر بعد ذلك ، ففى « عيون الأخبار » لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) نجد المجلد الرابع كله (١٥٠ صفحة) قد تصدره عنوان واضح الملامح وهو : « كتاب النساء ، فى أخلاقهن وخلقهن وما يختار منهن وما يكره » . وفى « العقد الفريد » لابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) نجد : « كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن » . وقد عقد الراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ) فصلا فى كتابه : « محاضرات الأدباء » – وهو الحد الثالث عشر – تحت عنوان : « فى الغزل وما يتعلق به » ، ومادة هذا الفصل ذات تقسيم طريف وإن يكن المحتوى تقليديًا مكررًا أو لا يكاد يختلف . وقد تعرفنا من قبل على ما سجله الثعالبى (٤٢٩ هـ) فى « التمثيل والمحاضرة » من أمثال سائرة وأبيات شاردة عن النساء والعشاق ، وفى « نهاية الأرب » للنويرى (٧٣٣ هـ) فى الجزء الثانى عشر نجد اهتمامًا واضحًا بأمور تعد فى عصرنا من أهم مروجات الأدوية والعقاقير ، ونعنى المركبات والأدوية والأطعمة المقوية للشهوة ، والتى تزيد فى الباه وتغلّظه ، بل يشير النويرى إلى أدوية شعبية ووصفات تساعد على الحمل أو تمنعه ، وتقوى المحبة أو تحول دونها ، وما إلى ذلك مما يدخل فى باب السحر والشعوذة[2] .

إننا لم نشر إلى هذه الأمور الطريفة على سبيل التفكه أو الاستهانة ، إنها جزء من « الثقافة » الموروثة ، يمكن أن نجد فيه دلالات نفسية واجتماعية مهمة ، ومثل ذلك ما نجد فى صبح الأعشى للقلقشندى (ت ٨٢١) – الجزء الثانى – مختصا بالصفات المستحبة المشتركة بين

---

(١) وانظر أيضا كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة الذى نشره المستشرق هنس وير ، وهو شبيه بألف ليلة وإن تكن القصص أقل تداخلاً وامتدادًا ، لكنها ذات ايحاءات مهمة فى مجال الحب والجنس .

(٢) نهاية الأرب جـ ١٢ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الرجال والنساء ، جسميًا وخلقيًا ، وما ينفرد به الرجال . وما تنفرد به النساء . وبهذا كله نتعرف على المفاهيم المتوارثة فى هذه الجوانب ، وهى ذات تأثير مباشر فيما نحن بصدده .

وأخيرا نشير إلى « مطالع البدور فى منازل السرور » الذى ألفه الغزولى (٨٥٠ هـ) وفيه فصول عن النساء وحياة القيان ، كما يقدم صورة وصفية لحضارة عصره وظلال تلك الحضارة على الحب بكل مستوياته .

على أن إشارات التوبرى إلى لذائذ الحب الحسية ، وكيف يمكن أن تكون أكثر ارضاء للمتحابين ، قد شغلت حيزا لا يستهان به من اهتمام المؤلفين ، سواء كانوا من الفقهاء أو الأدباء أو الأطباء والعطارين أو المشعوذين ، وقد تختلط على القلم الواحد كل هذه الألوان من التأثير ، حتى يختفى أمامنا الخط الفاصل بين الحقيقى والموهوم ، بين العلم والسحر ، بين الطب والشعوذة . ولا شك أن الباحث المعاصر يجد حرجا فى اعادة نشر هذه المخطوطات كما لا يمكنه أن يشير إلى كل ما فيها ، وهى بصفة عامة تمثل كما هائلا يدل على حجم الاهتمام بالمتع الحسية ، وعلى رأسها الجنس ، وقد يكون بعض الحرج راجعا إلى لغتها الهابطة ، بصرف النظر عن بعض الألفاظ المكشوفة التى كان بعض العرب يستعملها دون مواربة ، ودون أن يجد فيها ما يزيل رتبة الشرف . هناك بعض الكتابات المعتدلة ، نذكر منها مخطوطة بعنوان : « رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب » وهو من تأليف أحمد بن محمد بن على اليمنى ، المعروف بابن فليته ، (٧٣١ هـ) وكتابات متطرفة نذكر منها « أمل الذكر » الذى جمعه محمد بن الحسين الكورانى (١٢٤٣ هـ) وهو ينقل عن السيوطى ورجوع الشيخ إلى صباه ، وعمن يدعوه الهندى وغيرهم .

هذه أهم الدراسات ، ومن ثم الاتجاهات المتضمنة فيها ، عن الحب فى التراث العربى ، أردنا أن نقدمها اجمالا بين يدى القارىء توثيقا لهذا الكتاب ، واظهارا لانتشار الظاهرة ومواطن غزارتها وقوة اندفاعها ، ولقد كانت بحق ظاهرة كل العصور .

الفقهاء ... لماذا ؟ :

أما الآن فقد أصبح لدينا قدر من المعرفة بأهم من كتبوا عن الحب ، والمدى الزمنى الذى عمروه ، وليس من شك فى أن نوع النشاط العقلى أو العملى الذى يزاوله كاتب ما يحدد سلفا مجال حركته الذهنية ومدى رؤيته ، ان لم يكن وجهة نظره أيضا . وقد اكتمل لدينا أكثر من ثلاثين اسما من أعلام الدارسين العرب فى أكثر من مجال ، ويتحدد القدر المشترك بينهم أنهم جميعا قد نظروا إلى الحب باعتباره ظاهرة انسانية لا تعدو حدود الأحوال البشرية المعهودة ، المشهودة من أهلها : من الحيرة عند مشاهدة الجمال ، وتعلق القلب بالمعشوق ، والألم عند

هجره أو فراقه ، وما يتعرض له المحبون والعشاق من ابتلاء بالوشاة والرقباء ، وأثر ذلك على عواطفهم وحيلهم ، والغلو فى العشق ، وكيف يؤدى إلى الجنون أو الموت أو قتل النفس ، على حد تعبير ريتر ، ونحن وان حددنا مجال الحب الانسانى بما يميزه عن الحب الآلهى فإننا لن نستطيع تجاهل هذا الأخير تماما ، لوجود مناطق تماس بينهما ، واشتراك فى المصطلح وان اختلف الواقع عن الرمز .

وقد يرى بعض المتفلسفين صلة مباشرة بين الرموز الصوفية ورموز الحب بما فيه من معان ومشاعر جنسية[1] ، وسنعود إلى ذلك فى مكانه ، ونكتفى الآن بأن نردد النظر فيمن تعرفنا إليهم لنجد أنهم قد اهتموا بالحب باعتباره عاطفة انسانية ، تنقدح شرارتها بالتقاء الذكر والأنثى ، وتتحدد المسالك فيها بدرجة الحب ونظام المجتمع وقيمه الأخلاقية وعقيدته الدينية .

هنا سنصل إلى قدر مشترك آخر يحتاج إلى تعليل وايضاح ، وهو أن أكثر المهتمين بدراسة الحب ورواية أخباره وتسجيل نوادره وأشعاره وقصصه إنما هم من الفقهاء . سنضرب صفحا عن أولئك الذين كتبوا فصولا فى أثناء موسوعاتهم المطولة عن الشعراء أو القيان أو العشاق أو صفات الانسان ، لأن هذا مما يستدعيه عملهم ذو الطبيعة الشمولية ، بل سنضرب صفحا عن بعض فلاسفة الاسلام – مؤقتا – الذين تأثروا ببعض التيارات الفلسفية فى تحليل الحب وفلسفته ، واذن فقد بقى لدينا العدد الغالب من الدارسين الذين اهتموا بالواقع المعاش ، الذى قام على الملاحظة والرصد والتصنيف ، على نحو ما نجد فى الدراسات الميدانية ، وهنا سنجد الفقهاء يمثلون النسبة الغالبة بشكل واضح ، وان لم يكونوا من الفقهاء صراحة وبصورة مطلقة ،فاننا نجد الفقه والتفسير والحديث من أهم مصادر ثقافتهم ونشاطهم التأليفى أيضا ، وأول من نعنيهم : محمد بن داود الظاهرى ، صاحب كتاب الزهرة ، وأبوه مؤسس المذهب الظاهرى فى الفقه ، وهو مذهب يرفض القياس والاجتهاد ، ويأخذ بظاهر الكتاب والسنة ، وقد وصف صاحبنا بأنه الامام ابن الامام ، وألف فى أصول التشريع وفى الدفاع عن آراء أبيه الفقهية . أما ابن حزم – الظاهرى أيضا – فيكفى أنه مؤلف « المحلّى » ، ومعرفته الواسعة بالكتاب والسنة والمذاهب الفقهية والملل والنحل ظاهرة فى كتاباته ، وبخاصة فى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » و « الإحكام لأصول الأحكام » ويطول بنا الأمر ، وهو أوضح من أن نتوقف عند ابن الجوزى ، أو ابن القيم مثلا ، فهم فقهاء أصلا مثل السابقين ، فإذا ذهبنا إلى من هم أقل شهرة بالفقه فسنجد الصفة ذاتها راسخة فيهم ، فالبقاعى ذو صلة علمية بابن القيم ، وقد اختصر كتابه : « كتاب الروح » فى كتاب سماه « سر الروح » ، وله مختصر فى السيرة النبوية ، ويوصف الخرائطى بأنه فاضل من حفاظ الحديث ، كما يوصف مغلطاى بأنه مؤرخ من حفاظ الحديث ،

(١) مشكلة الحب – الفصل السادس : العبادة أو حب الانسان لله .

وقد ولى تدريسه فى المدرسة المظفرية بمصر ، كما شرح البخارى فى عشرين مجلدا ، وشرح سنن ابن ماجه . أما مرعى بن يوسف فإنه – كما يقول صاحب « الأعلام » : « من كبار الفقهاء » !! بل ان جعفر السراج ، مؤلف « مصارع العشاق » يوصف بالقارىء ، لمعرفته بالقراءات !!

ربما يكون من حقنا أن نتوقع – نظريا – أن يكون الأدباء أكثر اهتماما بالحب ، ترتيبا على ما قررناه من أن الشعر ، والتساع الاجتماعى مع الشعراء ، كان المدخل لشيوع حكايات العشاق وأخبارهم التى نجد فيها ما يصدم الحسّ الدينى ، ولكن رصد الواقع يدل على غير ذلك ، وان يكن من الصحيح أن الشغف بالأدب ، بل وقرض الشعر يكاد يكون صفة ملازمة لكافة المهتمين بالحب ، ولكن صفة « الفقيه » كانت الصفة الأساسية المعلنة لكثير منهم ، وان نافسها التاريخ أو الفلسفة أو صناعة الكتابة بعد ذلك .

من الطبعى أن يكون لكل واحد من هؤلاء الدارسين دوافعه الخاصة لتأليف كتابه ، وترتيبا على اختلاف الدوافع ستختلف المناهج فى اختيار النماذج وأسلوب صياغتها وإصدار الأحكام عليها .وفرق كبير جدا بين من يسمى كتابه : « طوق الحمامة » ، ومن يسمى كتابه فى الغرض ذاته : « ذم الهوى » !! ففى التسمية الأولى شاعرية واضحة ، وحلاوة فى السمع لا تخفى ، وفى التسمية الثانية نزعة استنكار ورغبة فى التهجين والتهوين ،حتى وإن كانت مادة الكتاب لا تؤدى إلى هذا التصور المفترض . ومع هذا الاختلاف فى مستوى التناول والحكم .. فإنهم فقهاء .. ولابد أن ننفى الغرابة عن هذه الرابطة الواضحة .

إن الاهتمام بالدراسات الفقهية هو فى صميمه اهتمام بالعلاقات الاجتماعية وما يترتب عليها من حلال مباح ومحظور ، وفى مجالات كثيرة تختلف أحكام الدين المتعلقة بالمرأة عن الأحكام المتعلقة بالرجل ، كما فى الصلاة والصوم والحج والثياب والزينة ومخالطة الآخرين والسفر ومزاولة بعض الأعمال .. وما إلى ذلك مما يترتب على اختلاف التكوين والوظيفة الأسرية والاجتماعية . وإذن فإننا لا نجد غرابة فى أن يكون الفقهاء أول من أقبل على هذا النوع من التأليف وأهمهم ، بقصد الكشف عن النوازع الانسانية ، وطبيعة العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، وما ينبغى أن تحاط به تلك العلاقة لتظل فى مستواها المقبول ، الذى يحفظ للنوع الإنسانى كرامته العقلية ورقيه الوجدانى ، حتى وإن تركت القصص والأشعار المروية – أحيانا – انطباعا بعكس ذلك ، لأنها صيغت بطريقة معينة ، وتوارثها الرواة بصيغتها ، ورأى المؤلف الفقيه أن من الأمانة العلمية أن يسجلها كما انتهت إليه ، بلا تحريف فى الغاية أو التعقيد الفنى . ومن الصحيح أن بعض هؤلاء الفقهاء كان يعقب على مثل هذه القصص والأشعار بعبارات التحذير والتنفير ، وإنه لمن حسن النية أن يعتقد أن بضعة أسطر من التزهيد ، بألفاظ خطابية شائعة المعنى يمكن أن تعفى

على آثار قصة محبوكة عن حيل العشاق وأفاعيل المحبين ، أو أن تقتلع من النفس أبياتا من الشعر صدرت عن قلب مكلوم باللوعة ، معذب بالحرمان . وجانب آخر من اهتمام الفقهاء يمكن أن يرجع إلى لغة الفقه ومجالات اهتمامه ، فإن هذا العلم يستبيح من الألفاظ والنعوت والحالات ما لا يستباح إلا فى علم التشريح وممارسة التطبيب !! وبخاصة فيما يتعلق بأعضاء المرأة والرجل ، وما يتعرض له كل منهما من التغيرات ، منفردين أو مجتمعين !!

وفيما يتعلق بقضية الحب ذاتها ، سنجد لها جوانب فقهية صريحة ، من الضرورى أن يقول الفقيه رأى الدين – كما يراه – فيها ؛ مثل النظر ، ومدى إباحته للمرة الواحدة ، وتكراره ، وما يرتبط به من الحجاب وحدوده ، والزنا وحكم مقدماته ، واللمم ، والمراد به وحكم الشرع فيه . فهذه كلها قضايا من صميم اهتمامات الفقيه ، وهى وغيرها مثل السماع والتلهى بالمطربات والغناء ، والخلوة ، من متطلبات الحب ودواعيه .

ولا شك أن الفقهاء ، وهم ممثلو الثقافة الدينية ، قد أزعجهم – فى بعض العصور على الأقل – التغير الواضح فى السلوك الاجتماعى ، وما أصبح يتسم به من حرية تقترب من الأباحية ، نتيجة للترف ، واختلاط الأجناس ، وتراخى قبضة العلماء ، وضعف الوازع الدينى ، وقد انعكس هذا كأوضح ما يكون فى انتشار الحانات ومجالس الشراب ، ثم فى انتشار العشق ، ومخادنة القيان والغلمان .

* قال محمد بن يحيى المدنى ، سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاة ، فيطوف بدارها حولاً كاملاً يفرح إن رأى من رآها ، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار . فاليوم : يشير إليها ، وتشير إليه ، فإذا التقيا لم يشكوا حبًا ، ولم ينشدا شعرًا . وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه[1] .

وهنا يمكن أن نلحظ أثر الزمن ، كما فى هذا الخبر الأول ، وأثر البيئة ، كما فى أخبار أخرى[2] ، حيث يختلف مفهوم البادية عن الحضر ، ولا شك أن البدوى يعرف ما يراد بلفظ الزنا ، ولكنه يترجمه سلوكيا إلى ما يقابل الفعل المستهجن ، ويصفه على هذا الأساس ، ويرى بحق أن الزنا ليس دليل الحب ، بل هو فعل العدو البعيد .

ويتكرر هذا الاحساس بالتغير الاجتماعى والسلوكى فى مجال الحب ، الاعتراض عليه والتنديد به عند أكثر من فقيه ، وهذا أوضح ما يكون فى « ذم الهوى » و « روضة المحبين » بصفة خاصة .

---

(١) أخبار النساء : ص ٤١ ، ٤٢ وانظر : ذم الهوى ص ٢٣١ بنصه تقريبا مع اختلاف فى نسبة الخبر

(٢) أخبار النساء : ص ٥١ ، ٥٤

وتتضح حالة البلبلة والقلق التى تصاحب التغير الاجتماعى السريع ، كما حدث فى بعض مراحل العصر العباسى على امتداده ، حيث الأجناس الوافدة ، والترف المتصاعد ، والسلطة المركزية الضعيفة ، والصراع المذهبى على أشده ، تتضح البلبلة والقلق فى بعض الأسئلة التى وجهت إلى الفقهاء ، أو زعم أنها وجهت إليهم ، وراح الشعراء ينظمون السؤال والجواب فى عبارات غزلة رقيقة يسهل انتشارها وتؤكد معنى الاستهانة ، والاحساس بحرية السلوك الذى يتجاوز العرف العام ، فضلا عن الأخلاق الدينية . قد يكون السؤال مجرد تظرف ومفاكهة ،وقد يجاريه الجواب على نفس الوتيرة ، مثل ما يرويه جعفر السراج أن بعض أهل الأدب كتب إلى أبى بكر بن داود الفقيه الأصبهانى صاحب « الزهرة » :

يا ابن داود ، يا فقيه العراق   أفتنا فى قواتل الأحداق
هل عليها القصاص فى القتل يوما   أم حلال لها دم العشاق ؟

ولم يجبه ابن داود بمثل ما علق النقاد على جرير حين قال لمحبوبته : « أخشى عليك بنىّ إن طلبوا دمى » فقال النقاد : هذا خطأ فإن قتيل الهوى لا يودى !! بل أجاب ، بروح الفنان وإن لم يجاف عقل الفقيه :

عندى جواب مسائل العشاق   فاسمعه من قلق الحشا مشتاق
لما سألت عن الهوى أهل الهوى   أجريت دمعا لم يكن بالراقى
أخطأت فى نفس السؤال ، وإن تُصِبْ   تك فى الهوى شفَقًا من الأشفاق
لو أن معشوقا يعذب عاشقا   كان المعذب أنعم العشاق(١)

فهذا هروب ظريف يليق بدماثة ابن داود ونزاهته ، ولكن الأسئلة والأجوبة لم تكن دائما بقصد التظرف والمطارحة الشعرية . وهذا صاحب مصارع العشاق نفسه يورد حوارا بين الامام مالك ، وابن سرحون ، نرى فيه الشاعر يسأل عن اللهو والغناء وحب الحسان ، ويحمل على الامام كذبا أنه وافقه على أن هذا كله حلال وأنه لا إثم عليه فيه ، ومالك يسمع الادعاء الجرىء ، ويحمد الله على النجاء نفسه وقد ظن أن الشاعر قد هجاه(٢) .

ويتقصى ابن القيم هذا النوع من الأسئلة الشعرية الماجنة التى توجه إلى الأئمة ، وبخاصة ما وجه إلى الشافعى ، وسعيد بن المسيب ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبى جعفر الطحاوى ، وغيرهم ، بل يذكر سؤالا فى أبيات قد وجه إلى أبى الفرج ابن الجوزى ، صاحب « ذم الهوى » ، وفى الأبيات مجانة لا تخفى :

---

(١) مصارع العشاق جـ ٢ ص ١١٩ والخبر والأبيات مع تغيير طفيف بنفس الجزء ص ٢١٣ .
(٢) مصارع العشاق جـ ٢ ص ١٨٥ .

يا أيها العـــالم مـــاذا ترى ... فى عاشق ذاب من الوجد ؟
من حـب ظبى أغيد أهيف ... ســـهل المحيا حســـن القد
فهـــل ترى تقبيله جـــائزا ... فى الفم والعينين والخـد ؟
من غير ما فحش ولا ريبة ... بل بعناق جـــائز الحـد
إن كنت مـا تفتى فإنى إذن ... أصيح من وجدى وأستعدى

وقد ردّ ابن الجوزى بما هو حكم الشرع من تحريم القبلة بالطبع ، فلم يستطع أن يغادر ذم الهوى وإن يكن تظرفًا شعريًا[1] .

وقد تلفتنا فى مقدمة « الزهرة » عبارة ناقدة لبعض من كتب عن العشق قبل ابن داود ، وكيف ابتدأ بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر بعض الأنبياء ، وذكر أنهم كانوا من أتباع الهوى على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم ولا يحل لمسلم أن يدعيها عليهم ، من قتل النفوس المحرمات ، ومن فعل الأشياء المستقبحات . وينكر ابن داود عليهم هذا التطاول ، ويرى أن ذكر أخبار الأنبياء والأئمة للعوام ينتهى بها إلى وضعها فى غير موضعها « ولكل من العلوم حد متعارف بين أهله لا يصلح أن يخلط بغيره »[2] .

ولم نجد فى الاشارات القليلة التى ألفت فى موضوع الحب قبل أن يؤلف ابن داود كتابه ما يحدد المراد بعبارته عن الأنبياء ، ولكننا سنجد بعده بثلاثة قرون بابا بعنوان : من أحب من الأنبياء وعشق من الأصفياء ، ضمن مخطوط : « روضة العاشق ونزهة الوامق » لأحمد بن سليمان الكسائى ، ويورد ضمن هذا الباب قصيدة لشاعر مجهول اسمه خالد الموصلى ، ومنها قوله :

ويك إن الملام يغرى الملوما ... ليس ذنبى كما زعمت عظيما
إن أكن عاشـــقا فلم آت الاّ ... ما أتاه الرجـــال قبلى قديما

ثم يمضى عبر سير الأنبياء من داود إلى موسى ويوسف ومحمد عليهم السلام ، مؤكدا أنهم جميعا عرفوا الحب ، مع عصمتهم ، ومن ثم فلا لوم عليه[3] .

ولسنا ندرى على القطع ما الذى كان يقال فى زمن ابن داود لكننا نرجح أنه لم يكن ليزيد عن ذلك إلاّ على سبيل التماجن والتظرف ، أو من فعل الزندقة .

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ١٣٥ ، ١٣٦ وانظر أيضا الصفحات : ١١٣ - ١١٧ .
(٢) النصف الأول من كتاب الزهرة : ص ٤ ، ٥ .
(٣) روضة العاشق ونزهة الوامق - ورقة رقم ٣٠ ، وانظر وصفه القصصى للحوار والحركة بين يوسف وزليخا فى الورقة ٣١ .

وهكذا تتصاعد قضية الحب ، أو قضاياه ، من السلوك الاجتماعى والطهارة الأخلاقية ، إلى سير الأنبياء والتأسى بأفعال الصالحين ، بل قد تتصاعد مرة أخرى إلى قضايا كلامية وغيبية ، فيطرح السؤال الحاضر دائما عن اختيار الإنسان واضطراره ، فهل العشق اختيار أو اضطرار ؟ وهكذا يفتح من جديد باب الحوار حول « حرية الإرادة » ، فينقل السراج عن يحى بن معاذ ، بسنده ، قوله : لو كان إلىّ من الأمر شىء ما عذبت العشاق ، لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار[1] ويعقد ابن القيم بابا كاملا لهذه القضية[2] ، ويعرض حجج الفريقين ، وينتهى فصل النزاع بين الفريقين – كما يراه – إلى أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف ، فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختيارى ، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره ، كما قيل :

تولّع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق
تمنى الإقالة من ذنبه ... فلم يستطعها ولم يستطق

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر ، فإن تناول المسكر اختيارى ، وما يتولد عنه من السكر اضطرارى .

هكذا تتوسع قضية الحب ، حتى تمتزج بقضية الإرادة ، متجاوزة قضية العفة فى ذاتها إلى ما يمس الوجود الإنسانى فى صميمه ، بل إلى ما بعد الوجود ، حيث حساب العشاق ، وحيث المرأة والتنعم بها ، وبالحور على غرارها بعض جزاء الجنة . ومن هذا كله لا نجد غرابة فى ظهور العامل الدينى فى قصص العشاق وأخبارهم ، وسنهتم بذلك فى مكانه ، وسيعنى هذا فى النهاية أن اقبال الفقهاء على هذا المجال من العواطف البشرية له ما يبرره من أسباب عديدة موضوعية ، وأن هذا الإقبال كان خيرا ، فظل الحب عاطفة نقية يذكر أصحابها بالإجلال لهم والتعاطف معهم والأسى لمصيرهم ، وظل الحب بهذا غير مرادف للعلاقة الجنسية ، كما أنها ليست جزءا من مفهومه أو ضرورة من ضروراته . وقد ترتب على ذلك كله أن ظل مفهوم الحب عند العرب على قدر من الصفاء لم يهبط به إلى الإسفاف ، وإن لم يرتفع به إلى التهويم أو المثالية ، ظل فى إطار الواقع الذى يحاول أن يرتقى بالذوق والخلق إلى مرتبة الكرامة الإنسانية .

وقد لاحظ بعض المهتمين بقضية الحب فى التراث العربى أن اهتمام الفقهاء به لا يأخذ طابعا شموليا ، بل يسلك طرائق أو من خلال مذاهب معينة ، فنجد J. Bell يؤلف كتابا عن الحب

---

(١) مصارع العشاق جـ ١ ص ١٢ .
(٢) الباب الحادى عشر من كتابه : روضة المحبين ونزهة المشتاقين .

فى الفكر الحنبلى the Hanblite thinking on love وكذلك يعد أحمد محمد البدوى رسالة ماجستير بعنوان : الحب عند الظاهرية ، وقد يكون من حق الحنابلة أن يأخذوا مكانا مميزا ، ويكفيهم جهود ابن القيم التى تمثل رؤية مستقلة عن كل ما سبقها تقريبا ، أمّا أهل الظاهر فقد كان لم فضل الريادة ، وهو ليس بالأمر الهيّن ،ولعل اهتمام ابن حزم بالحب كواقع ، وليس كأخبار مروية قد تأثر بهذا الاتجاه الفقهى ، ومع هذا سيبقى الإطار العام واحدا ، وتكاد المادة تتوارث وتتشكل فى أضيق نطاق ، داخل ذلك الإطار المحكوم بثقافة الفقهاء ، قبل أن يكون محكوما باتجاهات المذهب .

دوافع ... وذرائع :

سيبقى اقتحام موضوع الحب فى حاجة إلى مسوغات ، على الأقل بالنسبة لبعض العصور التى اتسمت بالمحافظة وتهيب مواجهة الواقع واخضاعه للبحث ، وبالنسبة لهذه الطائفة من جلة العلماء المشتغلين بالقرآن وعلومه . ومن الصحيح أن فى القرآن والحديث إشارات إلى الحب وأفاعيله ومحاذيره ، ودعوة إلى السمو به ، ولكن أين هذا من السيل الغامر من قصص العشاق وحيلهم ونوادرهم وأفانين فسقهم !! ولقد كانت هناك دائما تلك الأسباب الموضوعية التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة وتخص اقتحام الفقهاء لهذا المجال ، بل افتتاحه أصلا . ولكن هذه الأسباب المشتركة لن تكون إلغاء للدوافع الخاصة التى حركت بعض الأقلام عن عمد ، أو بتلقائية ، ولسنا نقصد الأسباب النفسية أو التجربة العملية بالذات ، والحق أن نصيب الخبرة الخاصة – فيما عدا تجربة ابن حزم – يعتبر جد متواضع ، وتلعب رواية المأثور دورا واضحا فى تكوين مادة أكثر هذه الدراسات . وما دمنا نتوسع فى مفهوم الدوافع فإننا نتجاوز بها الفقهاء إلى مجموع المؤلفين فى موضوع الحب ،ونتجاوز الرابطة النفسية إلى الاتجاه الفكرى العام .

ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يكون الجاحظ صاحب المحاولة الأولى السابقة فى تحليل الحب ووصف مظاهره وآثار التطور الاجتماعى والطبقات الاجتماعية على مفاهيمه ، فالمعتزلة بنزعتهم العقلية المتحررة ، ونزوعهم إلى الإفادة من الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الهلينية ، ورغبتهم فى التوفيق بين هذه الثقافات والمأثور من عقيدتهم الإسلامية كانوا لا يتحرجون من التوغل إلى أى منطقة من مناطق الفكر أو موضوع من موضوعات الحياة ، وليس من مهمة هذه الدراسة أن تحصى ألوان التجديد الفكرى والعقلى عند المعتزلة ، ويكفى أن نشير إلى رسائل الجاحظ التى نوهنا عن بعضها – وهو ما يخص موضوعنا – لنرى يقظة الملاحظة ودقة الرصد وصدق التصوير ، وبخاصة فى رسالته عن القيان . ويبدو أن الجاحظ قد كتب رسائله الصغيرة تلك قبل « المحاسن والأضداد » ولعل رسالته بعنوان « رسالة فى العشق والنساء » كانت البداية ،

ليس لأنها تتسم بالإيجاز وتفتقد الرؤية الموحدة ، حيث تتتابع فى فقرات قصيرة – أو فصول – تناقش قضايا عامة عن العشق ، وإنما لأنها – بالإضافة إلى ذلك – لا تعبر فى أسلوبها عن روح الجاحظ وذكائه وواقعيته الموغلة فى احترام الطبيعة . ومع هذا فإن الجاحظ كان يستشعر شيئا من الحرج من كتابته فى موضوع بعيد عن الجد ، ويعتذر بهذا الحرج عن إيجازه فى تصوير ما ينتاب العشاق من ذل الهوى « وذلك اتقاء الطعن على الكتاب وسخف الرأى الذى دعا إلى تأليفه » . أما وقد استحصد فكر الجاحظ واستحكمت موهبته الجدلية ،فقد كتب « المحاسن والأضداد » مستغلا موهبته العقلية فى التحسين والتقبيح ، والقدرة على مدح الشىء الواحد وذمه ، وهو بعض مآثر السفسطائية على المعتزلة ، وكان « البخلاء » الصورة الناضجة لهذه المقدرة الفريدة ، وكان « المحاسن والأضداد » تعبيرا آخر صريحا يحتاج إلى شجاعة ، حين يكتب عن محاسن مكر النساء ، ومحاسن الغيرة ، ومحاسن القيادة ، فيعبر عن بغداد القرن الثالث أصدق تعبير ، يصور حياتها الاجتماعية ولهوها وترفها ،كما ستكون العودة إلى الموضوع فى كتابه الموسوعى « الحيوان » بمثابة تأصيل علمى مقارن لما سبق أن ردده[1] .

ويختلف الأمر مع ابن داود كثيرا ، فنشاطه الفقهى يجعل أمر « الزهرة » يحتاج إلى دفاع ، وقد ظل فى دفاع دائم عن هذا الكتاب النادر ، وقد حدثوا أن معاصره الفقيه الشافعى ابن سريج كان إذا احتد النقاش بينه وبين ابن داود ، ولم يجد سبيلا إلى التغلب عليه بالحجة راح يذكره متهكما بكتاب الزهرة ، فربما قال له على سبيل الزراية : عليك بكتاب الزهرة ، أو : لعلك تجد جواب هذه المسألة فى كتاب الزهرة !! ولم يكن ابن داود يسكت على ذلك ، بل يواجه التعريض بتهكم صريح ، فربما قال فى رده على ابن سريج : ما أحسبك تحسن قراءته ، أو قال : يا ابن سريج ، هذا كتاب عملناه هزلا ، فاعمل أنت مثله جدا !![2] .

« عملناه هزلا » عبارة ظالمة فى وصف هذا العمل الرائد ، ولكنها فى الوقت نفسه تعبر عن الإحساس بالحرج ، الذى يستشعره الفقيه حين يكتب فى موضوع يتنافى ووقار العلم وجدية العمل . وحين نتصفح مادة الكتاب ومحتواه لن نجد فيه ما يمس الوقار أو الجدية . وسيدل هذا على أن الحب ذاته – بصرف النظر عن التفاصيل والأسباب – ظل موضوعا بعيدا عن الجدية ، وظل الخوض فيه بحاجة إلى اعتذار ، لم يكن إلها (كما كان الأمر عند الإغريق

---

(١) لاتناقض فى شكنا فى نسبة الكتاب إلى الجاحظ ، فالشك ينصب فى الحقيقة على دقة النسخة المتوفرة لدينا الآن ، ونعتقد – وسنقدم دليل ذلك –أنه قد أضيف إليها ما ليس منها .

(٢) يروى داود الانطاكى أنه وقع خلاف فقهى بين ابن داود وابن شريح الفقيه الشافعى (وليس ابن سريج) فقال له : أنت أعزك الله بكتاب الزهرة أمسّ من غيره ، فقال : أبكتاب الزهرة تعيرنى والله لا تصلح للنظر فيه –تزين الأسواق ص ٣٣٤ وقد سبق به مصارع العشاق جـ ٢ ص ١٣٧ مع تغيير قليل فى الألفاظ .

أو بعضهم على الأقل) ، كما لم يكن شعورا إلهيا عند عامة الناس ، إنه نزوة ، أو ضعف فى النفس عند أكثر الناس ، يتبرأ منه الأقوياء ، ويتحاشى الحديث فيه العلماء ، ويتركونه للشعراء والقصاص والإخباريين ، فإذا تسلل أحد من أصحاب الجد إليه ، كان لابد أن يقدم معاذيره وذرائعه .

يقول ابن الجوزى فى صدر كتابه : « ذم الهوى » :

« شكا إلىّ بعض من أثرت شكواه إثارة همتى فى جمع هذا الكتاب ، من بلاء ابتلى به ، وهوى هوى فيه ، وسألنى المبالغة فى وصف دواء دائه ، فأهديت له نصيحة وديد لأودائه » . ثم يتوجه إلى صديقه قائلا : « واعلم أنى قد نزلت لأجلك فى هذا الكتاب عن يفاع الوقار ، إلى حضيض الترخص فيما أورد ، اجتذابا لسلامتك ، واجتلابا لعافيتك ، وقد مددت فيه النفس بعض المد ، لأن مثلك مفتقر إلى ما يلهيه من الأسمار ، عن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار » .

ولسنا نستبعد وجود صديق حقيقى تمنى على ابن الجوزى أن يؤلف كتابا فى الحب ، وقد حدث ذلك كثيرا جدا ، فى القديم والحديث ، كما أنه من المحتمل أن يكون الصديق المعنى شخصية وهمية ، مجرد ذريعة لولوج الموضوع الذى يتناوله على حذر ، ويشعر بسببه أنه قد خرج عن يفاع الوقار إلى حضيض الترخص !!

وهنا تثار مسألة ، أو مناسبة تأليف كتاب « الزهرة » ، وقد سبق ما نوه به ابن داود من توجيه اللوم إلى مؤلفين سابقين لم يحددهم ، ولا يمكننا اكتشافهم ، كتبوا عن العشق بأسلوب لا يرضى وقار ابن داود وإحساسه بشرف عاطفة الحب وطهارة العشق ، حتى انهم نسبوا إلى الأنبياء والصالحين ما لا يليق ، ولكن هذا لم يكن الدافع الوحيد ، بل لم يكن الدافع الأول ، ولقد توجه بالخطاب – فى صدر كتابه – إلى شخص غير محدد ، فبعد الدعاء له وتعظيمه وإعلاء شأنه ، يذكر ما يعانى هذا الشخص ويعانيه ابن داود أيضا من تصاريف الأزمان وخيانة الأخوان ، ثم يسأله متعجبا : « ما الذى تنكر – أدام الله عزك وبسط بالخيرات يدك – من تغير الزمان وأنت من مغيريه ، ومن جفاء الأخوان وأنت المقدم فيه » وقد جرى زعم بأن المخاطب فى هذه العبارة هو محمد بن جامع الصيدلانى الذى عشقه ابن داود ومن أجله ألف كتاب الزهرة . وقبل أن نناقش هذا الزعم نذكر أن أول من أشار إلى ابن داود وناقشه فى بعض آرائه هو ابن حزم – أقرب كتّاب الحب إلى عصر ابن داود – وقد رفض فكرته التى حكاها عن بعض أهل الفلسفة ، فيما يتعلق بالأكر المقسومة[1] ، وهذا يعنى اطلاعه على كتابه ،

(١) طوق الحمامة – ص ٢١ .

ولم يشر إلى شيء من مناسبته ، أو يستنكر من سلوك صاحبه . أما جعفر السراج فهو أول من ذكر ذلك وتوسع فيه ، فقد روى بسندها ، ثلاثة أخبار :

* كان محمد بن داود يميل إلى محمد بن جامع الصيدلانى ، وبسببه عمل كتاب الزهرة ، وقال فى أوله : وما تنكر من تغير الزمان وأنت أحد مغيريه ... إلخ .

* وبلغنا أن محمد بن جامع دخل الحمام ، وأصلح من وجهه ، وأخذ المرآة فنظر إلى وجهه ، وركب إلى محمد بن داود ، فلما رآه مغطى الوجه خاف أن يكون قد لحقته آفة ، فقال : ما الخبر ؟ فقال : رأيت وجهى الساعة فى المرآة ، فغطيته ، وأحببت أن لا يراه أحد قبلك ، فغشى على محمد بن داود .

* كان محمد بن جامع ينفق على محمد بن داود ، وما أعرف فيما مضى من الزمان معشوقا ينفق على عاشق إلاّ هو[1]

ويروى ابن الجوزى هذه الأخبار ذاتها مع اختلاف فى بعض مراحل سلسلة السند ، ويزيد على ذلك خبر آخر يرويه نفطويه ، قال : دخلت على محمد بن داود الأصبهانى فى مرضه الذى مات فيه ، فقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثنى ما ترى . فقلت : ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : أما النظر المباح فأورثنى ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فإنه منعنى منها ما حدثنى به أبى ... عن ابن عباس عن النبى ﷺ ، أنه قال : « من عشق وكتم وعف وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة » .

والطريف حقا أن ابن الجوزى يناقش هذا الخبر الذى لا يتضمن تحديد شخص المحبوب ، على أن الإشارة إلى ذكر أمرد ، إذ يناقش – مستدلا بالخبر – مدى إباحة أو عدم إباحة النظر إلى الأمرد مع عدم الشهوة[2] وطبيعى أن يسرى هذا القول وأن نجد صداه فى المؤلفات بعد ذلك[3]

ولنا بعض الملاحظات على هذه الأخبار .

ومن حيث المبدأ ، كان عشق المرد والغلمان أمرا معروفا فى عصر ابن داود ، يصل به الفساق والمجان إلى العلاقة الشاذة ، ويتأول فيه البعض ممن ينسب نفسه إلى التصوف ، ويقف به عند مجرد المصاحبة والنظر . ولكن : هل تتقبل شخصية ابن داود أيا من هذين المستويين من العلاقة ! ؟

---

(١) مصارع العشاق جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٢) ذم الهوى ص ١١٩ – ١٢١ .
(٣) انظر مثلا : تزيين الأسواق ص٣٣٣ .

وقبل أن نخوض ذلك تفصيلا لابد أن نشير إلى الشك القوى فى اسم الشخص الذى تزعم الرواية أنه كان معشوق ابن داود ، فهل هو محمد بن جامع ، أو ابن زخرف ، أو هو وهب بن جامع العطار الصيدلانى ؟[1] . وهذا الاضطراب له دلالته فى عدم التثبت ، والاعتماد على الظن ، وإمكان التداخل ، وهنا مثل طريف جدير بالتأمل ، ففى تتبعنا لسياق الأخبار فى « ذم الهوى » نجد خبرا عن إسماعيل بن جامع وتشوقه إلى زوجته السوداء ، يلى ذلك بيتان لابن داود ، خلاصتهما أنه « حسن فى كل عين من تودّ » كما قال ابن أبى ربيعة ، وليس بيتا ابن داود بأجود ما قيل فى هذا المعنى ، وهما :

حملت جبال الحب فيك ، وانني ... لأعجز عن حمل القميص وأضعف
وما الحب من حسن ولا من سماحة ... ولكنه شيء بـه النفس تكلف[2]

والتلفيق والتصنع واضح فى هذين البيتين ، فلماذا قفزا إلى ذاكرة ابن الجوزى ؟ إن الجواب فى رأينا يحمله الخبر السابق ، فمجرد إيراد اسم ابن جامع ، وإن لم يكن الصاحب المزعوم لابن داود ، قد استدعى أبيات فقيهنا الظاهرى ، وهنا مكمن الخطر ، حيث يستسلم خيال العالم وذاكرته لتداعياته الخاصة دون تمحيص .

وهذا خبر آخر يرويه السراج ، أول من ربط بين ابن داود وابن جامع ، وسنجد فى الخبر دلالة عكسية تماما : يقول راوى الخبر : إن ابن داود كان يدخل الجامع من باب الوراقين ، فلما كان بعد مدة عدل عنه وجعل دخوله من غيره ، وكنت مجترئا عليه ، فسألته عن ذلك ، فقال : يا بنى ! السبب فيه أنى فى الجمعة الماضية أردت الدخول منه فصادفت عند الباب حدثين يتحدثان ، وكل واحد منهما مسرور بصاحبه ، فلما رأيانى قالا : أبو بكر قد جاء ، فتفرقا . فجعلت على نفسى أن لا أدخل من باب فرقت فيه بين مؤتلفين[3] .

فانظر إلى هذه الدمائة المتناهية ، والرقة النادرة ، وهل يقبل أن يكون مما ترضاه خلة عشق مهما قيل فى عفته هو نقص فى المروءة ، وثلمة فى الحسّ الدينى ؟ وهل يتوافق أن يقال إن ابن جامع كان ينفق على ابن داود ، وأنه كان أول عاشق ينفق عليه معشوقه ، مع قول راوية الخبر السابق : « وكنت مجترئا عليه » ثم يكون السؤال الجرىء عن شيء عادى جدا هو سبب تغييره للباب الذى اعتاد أن يدخل منه إلى المسجد ؟ وهل يمكن أن يقال لابن داود وهو على فراش الموت : « ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه » ؟ ! فأين مهابة رجل يخشى

(١) انظر مقدمة محققى النصف الثانى من كتاب الزهرة .
(٢) ذم الهوى ص ٣٠٢ .
(٣) مصارع العشاق جـ ١ ص ٣٢٧ ، وقد نقله ابن الجوزى بنصه عن ابن السراج ، انظر ذم الهوى ص ١٢١ و ١٢٢

المجترىء عليه أن يكلمه ، وأن يكون أقصى ما يجترىء به أن يسأله عن اختلاف طريقه إلى المسجد !! ولا يفوتنا الفجوة الواسعة التى لا يمكن ملؤها بين التحريض على متعة محرمة ، وحالة مريض يرى الموت بين عينيه !!

ولا يغيب عنا أن الرواية التى تحدثت بهذا العشق صريحة محددة ، أما نقضه فهو مجرد استنتاج مرده للوعى بشخصية الرجل والتعرف على قاعدة سلوكه ومنحى أخلاقه ، وهو مهم جدا ، ولا يستغرب أن يتقدم فى الأهمية على خبر يمكن اصطناعه ، ولا يستبعد أن يلفق لزعيم دينى ورائد مذهب له خصوم ، ودخل فى منازعات ، والتشويش عليه أو تجريحه إذا أمكن ، يؤتى ثمارا سريعة فى مجال المنافسة ، وكبار كتاب التراجم المهتمون برسم صور الشخصيات بتأمل نتاجها الأدبى والعلمى ينتهون إلى تصور محدد من خلال معايشة هذا النتاج واستبطان دلالاته ورموزه ، ثم يقبلون ويرفضون على أساس من هذا الوعى بأبعاد الشخصية ، أو مفاتيحها . ونحن إذ نتأمل مفهوم الحب فى كتاب « الزهرة » نجده فى غاية من السمو ، ويعتبر عاطفة شخصية ينبغى أن تحاط بالكتمان ، حتى إن وصف الحبيب ، فضلا عن إشهاره بالحديث عنه ، يعتبر نقصا فى صدق العاطفة ، وخروجًا على مقتضى المروءة ، فاقرأ إن شئت الباب التاسع بعنوان : « ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف » ، وتأمل هل يتسق ذلك والحوار المزعوم على فراش الموت ، وإقبال ابن جامع وقد غطى وجهه حتى لا يراه أحد قبل ابن داود ؟ !!

وحين نتأمل مادة الكتاب ، فإننا نجده أبعد ما يكون عن أن يعتبر رسالة شخصية أو مادة مجموعة لتسلية شخص فى مستوى ابن جامع ، فلم يكن ابن جامع – أو غيره ممن اختلط اسمه بأسمائهم – شاعرا أو ناقدا أو مفكرا ، ومحتوى كتاب الزهرة يتجاوز استطاعة فتى أمرد كل موهبته أنه حسن الشكل ، وها هو ذا ابن داود يشرح منهجه فيقول : « واستودعته مائة باب ، ضمنت كل باب مائة بيت ، أذكر فى خمسين منها جهات الهوى ، وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وأذكر فى الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية ... » فكما ترى أن ابن داود قد وضعنا مباشرة أمام كم هائل من الشعر ، انبسط فى ثمانمائة صفحة أو يزيد ، ما نظن أن تسلية ابن جامع أو سواه لم تكن تتم إلاّ بها ، والكتاب فى معناه الشامل دراسة نفسية ، وسياحة أدبية نقدية ، وارساء لتقاليد الحب العف ، فى لغة جادة ، قد تصل درجة الجفاف والتجهّم . وفى المقدمة ذاتها ما يدل على إحساس طاغ « بالناس » وليس « بالشخص » ، فيذكر مرة أنه سيفاضل بين الأشعار والشعراء ، ثم يعقبه قائلا : « ولا أحمل الناس على اختيار أحدهم فأكون ظالما لهم » ويقول بعد ذلك : « ولن يعدم كتابنا هذا أن يصادف عاقلا وجاهلا ومتحاملا »[1] .

---

(١) يصف مؤلف « منازل الأحباب ومنازه الألباب » كتاب الزهرة بأنه فى المجاميع الشعرية !! – المخطوط – ورقة ٢٦ .

وخلاصة القول أننا ننكر هذا العشق المزعوم مهما وصف بالعفة ، ونبرىء المحاولة الرائدة فى مجال دراسة الحب أن تكون من منطلق شاذ ، وليس فى الكتاب كله ، على كثرة ما فيه من الأشعار ، بيت واحد يروج للحب الشاذ أو يعتذر له .

مركز الدائرة :

وليس من شك فى أن التكوين النفسى والعضوى ، واتجاه النشاط العقلى ، والخبرة الشخصية التى تتجاوز مجرد أن يمر الشخص بتجربة حب ، تلعب جميعها دورا أساسيا فى توجيه الاهتمام إلى أخبار العشاق ، ومحاولة الكشف عن دوافعهم وألوان معاناتهم . وقد لا تتوافر لدينا أخبار مفصلة عن طفولة كثير ممن كتبوا عن الحب وعن تجارب حياتهم ، فليس هناك سوى ابن حزم من أخذ بأسلوب الاعترافات ، وابتدع الافتتاحية الصريحة : « وعنّى أخبرك » أما رفاقه على طريق الحب فإنهم دارسون ومصنفون وفقهاء ومتأملون ، وعلينا أن نستقرىء شواهد حياتهم بحثا وراء الدوافع الأخرى التى جعلتهم يؤثرون موضوع الحب . ولكن الإشارات القليلة ، مع بعض الأخبار ، والإطار العام لمؤلفات الكاتب يمكن أن تضع أمامنا الطابع الغالب لطبيعة الشخصية التى تؤثر هذا الموضوع أو تتجه إليه .

وقد كان محمد بن داود يلقب بعصفور الشوك ، أطلقه عليه الصبيان ، وقد بكى للذع اللقب ، ولكن أباه أقر وصف الصبيان مما زاد فى بكاء الفتى . وقد يدل هذا اللقب على الخجل وشدة الحساسية ، تلك الصفة التى لازمته منذ صباه حتى لقى ربه[1] ، وقد تدل على النحافة وصفرة اللون[2] ، ومهما يكن من أمره فقد عاش عمرا قصيرا إذ مات فى الثانية والأربعين ، وسواء ألف كتابه فى صدر حياته كما ظن البعض ، أو فى آخرها ، كما يرجح بعض آخر ، فإن المعاناة كانت مستمرة ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « ما انفككت عن هوى منذ دخلت الكتاب »[3] ، فهذه ملامح الشخصية المبكرة .

ويتشابه الدافع المعلن لابن حزم مع دافع سابقه – ابن داود – ولاحقه – ابن الجوزى ، فى توجيه الخطاب إلى شخص غير محدد واظهار الاستجابة لرغبته بتصنيف « رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزايدا ولا مفتنا » . ثم يظهر الحرج : « فبدرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته ، فهذا من اللغو ، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب ، وحسن المآب غدا »[4] .

---

(١) الحب العذرى ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) الأعلام ٦/١٢٠ .
(٣) الحب العذرى ص ٩٧ .
(٤) طوق الحمامة ص ١٦ .

ولكن هذا « اللغو » من أهم الدراسات فى بابه ، ومن أهم الصور النفسية التى كتبها مؤلف عن حياته العاطفية . على أنه يمكن اعتبار ابن حزم « عصفور شوك » آخر ، فقد أصيب فى طفولته بخفقان القلب ، واستمر فيما بعد يعانى من مرض الكبد ؛ وربما أعان هذا على تفسير ما لاحظه عليه معاصروه من حدة فى الطبع وعنف فى المناقشة وعجز عن ضبط نفسه فيها[1] ، ومن هنا كانت العبارة المشهورة : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، ومن الصحيح ما قرره الحاجرى أن مرض الطفولة ،فضلا عن تأثيره الجسمى والنفسى ، يستدعى أن يحاط الطفل المريض بعناية مضاعفة[2] ، فإذا ما تذكرنا حياة الترف التى نشأ فيها ابن حزم ، وكيف درج فى مجتمع نسوى لا يكاد يجالس الرجال حتى بلغ مبلغ الشباب ، وكيف تقلبت حياته بين الرخاء المترف والشدائد القاصمة ، وبين الوزارة والسجن ، عرفنا أسباب هذا المزاج الحاد الواضح فى اختيار مادة كتابه وأسلوب صياغته ؛ فـ « الأنا » مسيطرة تماما ، والعيب دائما يقع على الآخرين ، ومن سوء تقديرهم وعدم تجاوبهم .

أما ابن الجوزى الذى ذم الهوى ، فإن صورته المنطبعة من خلال مؤلفاته تبديه كرجل إسلامى أحرز خلاصة العلم النقى – كما يقول محقق ذم الهوى فى مقدمته – ووهب حياته للدفاع عن دينه وتعاليمه ، وأخلص وجهته لله ، فلم يجبن ، ولم يبتغ بعمله وقلمه عرض الحياة الدنيا . ومع أن هذه الصورة « الجادة » لابن الجوزى هى الصورة التى ارتضاها المحقق ، فإنه يروى فى مقدمته ذاتها ملامح « الشخص الآخر » المختفى فى أعماق ابن الجوزى ، فهو ينقل عن ابن العماد الحنبلى قوله : « كان ابن الجوزى لطيف الصوت ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة .. وكان يراعى حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذهنه حدة ، يعتاض عن الفاكهة بالمفاكهة ، لباسه الأبيض الناعم المطيب ، وله مجون لطيف ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناء ، وذكر غير واحد أنه شرب حب البلاذر فسقطت لحيته ، فكانت قصيرة جدا ، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات » !!

إن هذا الإقتباس فى غاية الأهمية بالنسبة لدوافع تأليف « ذم الهوى » ، فالحق أننا إذا تأملنا مجموعة الأوصاف السابقة سنجد صراعا واضحا معلنا بين شخصية الفقيه وشخصية « الفنان » ،الأديب الظريف المبدع المقبل على الحياة ، كما نراه فى أيامنا . النشأة العلمية والوجاهة الاجتماعية استأثرت بالجانب الجاد وأملت نفسها عليه ، ولكن « الشخص الآخر » عبر عن نفسه تكوينا وسلوكا وابداعا ، فكان حسن الصوت يحب المفاكهة والمجون والمداعبات ، ويحب

(١) ابن حزم : صورة أندلسية ص ٤٠ .
(٢) السابق نفسه .

أن يدلل نفسه فى الطعام والملبس والعشرة ، ويحب أن يبدو شابا إلى آخر يوم فى حياته ، وقد عاش فوق الثمانين عاما !! !

ولسنا – على أية حال – فى حل من استعراض مادة الكتاب ، ولكن يكفى أن نشير إلى عناوين بعض الفصول مثل : إذا لم يستعمل القلب فيما خلق له تعطل – مخالفة الهوى أعظم من المشى على الماء – اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم – مداراة المعصية أسهل من معاناة التوبة – كيف تدخل شواهد الحق قلبا فيه أوصاف غيره من البشر – معنى قول النبى : النظر سهم مسموم .. إلى آخره ، فهذه قطرات من سيل من الفصول والقصص والمسائل والمواعظ التى حفل بها الكتاب الضخم ، وكلها تؤكد هذا الصراع بين ابن الجوزى الفقيه ، بكل ما للقب من التزامات و « لوازم » ، وابن الجوزى الإنسان « الفنان » بكل ما فى الصفة من حرية التصور وحرية الإحساس وحرية التعبير .

وهذا الصراع نفسه نجده فى اتجاه مؤلفاته ، إن مؤلفاته الفقهية هى الأكثر كما وشهرة بالطبع ، وهى تترك فى النفس إحساسا بالجدية والاهتمام بالقضايا الدينية ، ولكن « الاتجاه الآخر » يتسلل برفق بين حين وآخر ، فنجد فى قائمة مؤلفاته المنشورة أو المخطوطة مثل : عيون الحكايات ، أخبار النساء ، الأذكياء ، المغفلون ، القصاص والمذكرون . وباستثناء « أخبار النساء » الذى نشر منسوبا خطأ لابن القيم فإننا لن نتعرض لشىء من هذه الكتب لأنها خارج موضوعنا ، ونكتفى بمجرد العنوان الذى يعبر بصدق عن الجانب الآخر لهذا الرجل ، جانب حب الحياة والمداعبة والميل إلى الزينة والطرف وتذوق كل ما هو جميل .

ونختم هذه الأسطر عن ابن الجوزى بهذا الخبر الطريف الدال الذى ينقله إلينا داود الانطاكى :

إن أبا الفرج بن الجوزى تزوج امرأة اسمها نسيم الصبا ،فأقام معها مدة ، ثم وقعت بينهما وحشة ، ففارقها ، فاشتد بها كلفه وزاد غرامه ، وراسلها فأبت عليه وطال بينهما الأمر ، وأنها حضرت مجلس وعظه يوما ، فلاحت منه نظرة فرآها وقد استترت بجاريتين ، فتنفس الصعداء وأنشد قول مجنون ليلى :

أيا جبلى نعمـــان بالله خليـا ... سبيل الصبا يخلص إلىّ نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة ... على كبد لـــم يبق إلاّ صميمها
فـان الصَّـــبارِيحٌ إذا ما تنسمت ... على نفس مهموم تجلت همومها

فاستحيت ثم ذهبت وقد داخلتها الرقة له ، فحكت لبعض النساء ذلك ، فمضين فأخبرنه فراسلها فأجابت فتزوج بها[1].

---

(١) تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ص ١١١ والأبيات بنصها فى النصف الأول من كتاب الزهرة ص ٢٢١ ، باستثناء « مغموم » مكان « مهموم » وهموم الحب أكثر مناسبة .

فهذا صاحب ذم الهوى يقحم فى سياق وعظه ، والمجلس وقور – أبياتا بريئة الظاهر وهى غزل صريح موجه إلى زوجته السابقة ، التى تأثرت بالإخراج الدرامى للمشهد ، فلان قيادها ، بعد شماس ، ورقت له بعد جفاء .

وإننا إذ نشير إلى مؤلفات أخرى لابن الجوزى ، غير مؤلفاته الفقهية ، ونحاول أن نستكشف من خلالها الإطار العام لنشاطه العقلى وإتجاهاته النفسية لا نفعل ذلك استطرادا أو توسعا ، وإنما لأن طبيعة هذا النشاط العقلى واتجاهه ذات دلالة نفسية من جانب ، تعين على تصور الشخصيات التى كتبت عن الحب والعشق ، ولأن هذه المؤلفات تترك أثرها فى الموضوع الذى نعنى به ، إن لم تتداخل معه ، تماما كالمؤلفات الفقهية نفسها ، فالاستعداد العقلى والبناء النفسى والثقافة المدخرة والقدرة على فهم الأشياء وأسلوب التعبير عنها ، كل ذلك لا يتغير من موضوع لموضوع إلاّ قليلا جدا فيما يمسّ قضايا الموضوع ذاته . وسنرى الآن أن كتابة ابن الجوزى عن الحمقى والأذكياء والحكايات والحكائين ليس مما انفرد به بين هذه الطائفة التى اهتمت بدراسة الحب ، ويمكن الآن أن نتأمل هذه الإشارات الموجزة لنتنهى إلى تصور أكثر شمولا :

* فالسرخسى الذى اهتم بأمر النجوم ، وكيف تتحكم أو تؤثر فى أخلاق البشر وعواطفهم ، يؤلف كتابين عن الموسيقا ، وثالثا عن الجلساء والمجالسة ، ورابعا عن اللهو والملاهى ، وخامسا عن النفس ، وسادسا عن القيان .

* ويذكر ياقوت أن الخطيب كتب عن ابن السراج بعد وفاته : « ولم يكن به بأس » وهذا عقب ما قرره من كثرة تردده على مدينة صور ، وكثرة أسفاره .

* أما المرزبانى – جامع أشعار النساء – فكان معتزليا ، وكان يميل إلى التشيع فى المذهب – كما يقرر محققا كتابه –وله أشعار فى الجن . ومن مؤلفاته الأخرى : الرائق فى أخبار الغناء والأصوات ونسبتها – أخبار المغنين – المستطرف فى الحمقى والنوادر – ذم الحجاب ، وكان يضع المحبرة وقنينة النبيذ ، فلا يزال يكتب ويشرب .

* أما السيوطى ، وهو من نعرف بين الفقهاء وكتاب التراجم والنحاة ، فقد كتب عن « أشعار النساء » وإلى جانب المصنفات القيمة التى وضعها فإنه قد تناول بعض الموضوعات الخفيفة ، كأنما يتسلى بكتابتها ، مثل : الطرثوث فى فوائد البرغوث – الوديك فى فضل الديك – ما رواه السادة فى الإتكاء على الوسادة . وله من الكتب المخطوطة ما يجد الباحث حرجا فى عرضه ، مثل « الأس فى من رأى فى ... من المطايبات »[1] .

---

(١) انظر : جلال الدين السيوطى ، مجموعة بحوث ألقيت بالندوة التى أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ .

* وللخرائطى كتاب فى مكارم الأخلاق ، وآخر فى مساوىء الأخلاق ، وثالث فى أخبار العشاق ، أما كتابه الرابع فموضوعه : هواتف الجان وعجائب ما يحكى عن الكهان .

* وللبقاعى كتابان هما : سر الروح ، ومصرع التصوف .

* أما مرعى بن يوسف ، فمن كتبه : رياض الأزهار فى حكم السماع والأوتار – وأرواح الأشباح فى الكلام على الأرواح[1] .

وبالطبع ، نحن فى غنى عن التذكير بأن لابن حزم رسالة فى الأخلاق والسير .

ولكن : فى النهاية .. علام يدل ذلك ؟

إذا كان العشاق وشهداء الحب وشعراؤه صنفا آخر من الناس ، يمتاز بصفات نفسية وعقلية وعضوية مميزة ، فإن الدارسين والأدباء الذين آثروا هذه العاطفة باهتمامهم ، يغلب على الظن أنهم يشاركون فى نفس الخصائص . لم يتقارب هؤلاء المؤلفون أعمارا ، فمات ابن داود شابا ، وبلغ ابن حزم فوق السبعين ،وتجاوز ابن الجوزى الثمانين ، ولكن – من الوجهة العقلية والنفسية – يمكن اكتشاف ذلك الإطار الذى تحدثنا عنه . على أننا ينبغى أن نستثنى الرائدين : ابن داود ، وابن حزم ، لصلتهما القوية المباشرة بعلوم الدين وأمامة المذهب ، ولأنهما عاشا عصر القوة والتجديد الفكرى والحركة العقلية ، أما أولئك الذين جاءوا من بعدهم فقد امتزج الحب لديهم بغرابة الأطوار وشذوذ السلوك ، فى الخير أو فى الشر ، وتسللت إليه الحكايات العجيبة ، واختلط بالغرائب والمستحيل ، حتى روى السراج قصة الغراب العاشق الذى ينشد الشعر بعربية سليمة ، موزونا مقفى[2] ، ويروى الانطاكى عن الأصمعى قصة رجل يزين كلبته كل ليلة ويعطرها ، ثم ينزع عنها الثياب ويعاقبها ، لأن ابنة عمه فارقته بعد حب ، حين تغير الزمان وأملق[3] ، وحتى تنتشر فى هذه الكتب وغيرها قصة رجل يروى عن عذابه العاطفى ، وقد يلقى قصيدة ، ثم يشهق شهقة تخرج معها نفسه ، وقد تموت صاحبته فى نفس اللحظة على تنائى الديار وانقطاع الأخبار ...

إن هذا الطابع القصصى الخرافى ، الذى ينظر إلى الحب كعاطفة غامضة ، غريبة الأطوار ، مستعصية على الفهم ، مجرد بلاء من الله يصيب به أصحاب القلوب الشفيفة أو العقول المصابة بالخبل ، هذا الطابع الانحرافى لا نجده فيما كتبه ابن داود أو ابن حزم ، ونسبيا لا نجده عند ابن الجوزى أيضا ، ولكن فيما عدا ذلك ، سنجد الميل إلى الاغراب ، والاهتمام بالحكايات ،

(١) عن مصنفاتهم راجع : معجم الأدباء لياقوت ، والأعلام للزركلى .
(٢) مصارع العشاق جـ ١ ص ٨٥ ، ٨٦ .
(٣) تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ص ٣١٠ .

والإحالة على العجائب والأمور غير المفهومة .. لقد كان نشاط الرواد فقهيا فجاءت دراساتهم إنسانية تنظر إلى الحب كعاطفة كريمة ، هى جزء من صحة النفس والبدن والذوق والخلق والإيمان ، ومزج الآخرون ثقافتهم بالنجوم وحكايات الكهان وقصص الحمقى والأذكياء ، ومغامرات الجان ، فكان طبيعيا تماما أن تظهر هذه الطوابع عندهم فى مفهومهم للحب ، وحدود اختياراتهم لحكاياته ، وتحليلهم –إن كان ثمة تحليل – لانفعالاته ودوافعه .

obeikandl.com